# قصة توبة كعب بن مالك وصاحبيه رضي الله عنهم

خالد بن ضحوي الظفيري

إنَّ الحمدَ للَّه، نَحمدُه ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أَنفُسنا ومن سيئات أَعمالنا، من يهده الله فَلَا مُضلَّ لَه، ومن يضلل فَلَا هادي لَه، وأَشهد أَن لَّا إِلَه إِلَّا الله وحده لَا شريك لَه، وأَشهَد أَنَّ محمَّدا عبده ورسولُه، ﴿يا أَيُّها الَّذين آمنوا اتَّقُوا اللَّه حقَّ تُقاته ولَا تَموتُنَّ إِلَّا وأَنتم مُسلمونَ﴾ [آل عمران:١٠٢].

أَمَّا بعد:

فَإِنَّ أَصْدَقَ الحَديث كَلَامُ الله عَزَّ وَجَلَّ، وخيرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشَرَّ الأُمور مُحْدَثَاتُها، وكُلَّ مُحْدَثَة بدْعَةٌ، وكُلَّ بدْعَة ضَلَالَةٌ، وكُلَّ ضَلَالَة في النَّار.

عباد الله:

لقد ضرب لنا صحابة النبي ﷺ أروع الأمثلة في الصدق في الاتباع والتوبة والعبادة، فهم أكمل الناس قلوبا وأشدهم إقبالا على الله تعالى ورجوعا إليه، حصل من بعضهم شيء من التقصير فقابلوا ذلك بالتوبة النصوح، وهكذا دأب الصالحين، وعمل المتقين، وهاكم قصة الثلاثة الذي خلفوا عن غزوة تبوك مع النبي ﷺ دونما عذر، وتدبروا ما الذي نجاهم، حتى علا شأنهم، وذكرهم الله تعالى في كتابه.

فعن كعب بن مالك في حديثه عنه وعن صاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ﷺ قال كعب: لم أتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك غير أني كنت تخلفت في بدر ولم يعاتب أحدا تخلف عنها إنما خرج رسول ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، [وانظر إلى صدقه في الاعتراف ويقينه أن الله عالم بأمره وبما يسره]، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورَّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرا بعيدا ومفازا وعدوا كثيرا، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ يريد

الديوان. قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئا، فأقول في نفسي أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئا، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز فرجعت ولم أقض شيئا ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئا، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلا مغموصا عليه النفاق، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟. فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه ونظره في عطفيه. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيرا. فسكت رسول الله ﷺ، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنّ رسول الله ﷺ قد توجه قافلا من تبوك، حضرني بثّي، فطفقت أتذكّر الكذب، وأقول: بم أخرج من سخطه غدا؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: إنّ رسول الله ﷺ قد أظل قادما، زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدا. فأجمعت صدقه. وصبح رسول الله ﷺ قادما. ثم ذكر أنّ المخلّفون جاؤوه واعتذروا له عن عدم خروجهم، ثم قال كعب: فجئت أمشي حتى جلست بين يديه. فقال: «ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» . قال: قلت يا رسول الله! إني، والله! لو جلست عند غيرك من أهل الدّنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر. ولقد أعطيت جدلا. ولكني، والله! لقد علمت، لئن حدّثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي. ولئن حدّثتك حديث صدق تجد علي فيه، إني لأرجو فيه عقبى الله. والله! ما كان لي عذر. والله! ما كنت قطّ أقوى ولا أيسر مني حين تخلّفت عنك. قال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق. فقم حتى يقضي الله فيك» . فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسي، ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. فقلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين

صالحين قد شهدا بدرا فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟، ثم أصلي قريبا منه فأسارقه النظر فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له فنشدته، فسكت، فعدت له فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار.

قال فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشأم ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إلي كتابا من ملك غسان، فإذا فيه: أما بعد فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة فالحق بنا نواسك. فقلت: لما قرأتها وهذا أيضا من البلاء، فتيممت بها التنور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها. وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك، فقلت: لامرأتي الحقي بأهلك، فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك. قالت: إنه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أميه أن تخدمه؟ فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب؟، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا.

وهكذا عباد الله كانت عقوبة هؤلاء الثلاثة من الله تعالى على ذنبهم تطهيرا لهم واختبارا وابتلاءا من الله تعالى وفتنة لهم، وهذا حال المؤمن الصادق التائب لا يرده شيء عن توبته ورجوعه إلى

الله ويرى الذنب عليه كالجبل على ظهره. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ العَظِيمَ لِي وَلَكُمْ مِنْ كُلِّ ذَنْبٍ فَاسْتَغْفِرُوهُ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ.

## الخطبة الثانية

الحَمْدُ للَّهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى رَسُولِ اللهِ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ رَبُّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

أَمَّا بَعْدُ: عباد الله يقول كعب بعد أن تمت خمسون ليلة من هجرَ الناس لهم، قال: ثم صلّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا. فبينا أنا جالس على الحال الّتي ذكر الله عز وجل- منا. قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر. قال: فخررت ساجدا. وعرفت أن قد جاء فرج. قال فأذن رسول الله ﷺ النّاس بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر. فذهب النّاس يبشروننا. فذهب قبل صاحبي مبشرون. وركض رجل إلي فرسا، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى الجبل. فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءني الّذي سمعت صوته يبشرني. فنزعت له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته. والله! ما أملك غيرهما يومئذ. واستعرت ثوبين فلبستهما. فانطلقت أتأمم رسول الله ﷺ يتلقّاني النّاس فوجا فوجا، يهنئوني بالتوبة ويقولون: لتهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد. فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله النّاس. فقام طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه يهرول حتى صافحني وهنّأني. والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره. قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب فلما سلّمت على رسول الله ﷺ قال، وهو يبرق وجهه من السرور ويقول: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» . قال: فقلت: أمن عندك يا رسول الله! أم من عند الله؟. فقال: «لا. بل من عند الله» . وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه. كأنّ وجهه قطعة قمر. قال: وكنّا نعرف ذلك. قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول الله! إنّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أمسك بعض مالك. فهو خير لك» . قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الّذي بخيبر. قال: وقلت: يا رسول الله! إنّما أنجاني بالصدق. وإنّ من توبتي أن لا أحدّث إلّا صدقا ما بقيت. قال: فو الله! ما علمت أنّ أحدا من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث، منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسن ممّا أبلاني الله به. والله! ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ،

إلى يومي هذا. وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. ثم ذكر نزول الآيات في توبة الله عليهم. )لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ) هكذا عباد الله هو حال أهل الإيمان مع ذنوبهم، ومعرفتهم لمنزلة التوبة من الله تعالى. اللهم اجعلنا من الطائعين التائبين ...